استجابات الجمهور الرياضي العربي نحو الهوية الإسرائيلية

حيدر إبراهيم
المصدر
(فلسطين)

مقدمة

برزت خلال مونديال قطر مشاهد حية على سعي الجمهور العربي لمناصرة القضية الفلسطينية سواء من على المدرجات أو في الفضاء الخارجي المحاذي للملاعب. وتعددت المشاهد ما بين لغوية مثل ترديد الهتافات والشعارات والأناشيد والكتابة على الجدران، وعلاماتية غير لغوية مثل التلويح بالرموز الفلسطينية كالعلم والكوفية أو رفع الصور والتيفوهات. وبموازاة حجم التأييد الجارف للقضية، تجلى على نحو لا يقبل التأويل أو الإنكار رفض الجمهور العربي وتجنبه التفاعل مع المراسلين الإعلاميين (الإسرائيليين)، وإنتاجه استجابات تفضح فشل جهود الدعاية (الإسرائيلية) الرسمية وغير الرسمية في تمرير مخططات التطبيع الاجتماعي.

إلى ذلك، يحظى خطاب جمهور كرة القدم بأهمية بالغة، إذ يُنجز وظائف لم تستطع مؤسسات رسمية ووسائل إعلام إنجازها، مثل وظيفتي التأثير والعدوى. هذا الخطاب، فردي كان أم جماعي، منظم أم عفوي، الذي يُسجل داخل فضاءات حية ويتمظهر بعلامات متنوعة، يعكس عمق علاقة الجماهير العربية بموروثها الثقافي، وسعيها إلى الارتباط السلوكي به، ويبين حقيقة اتساع الهوة بين المواقف الرسمية والمواقف الشعبية بخلاف ما تروج له دعاية السلطة، كما يكشف استغلال الجماهير فضاءات كرة القدم كمواقع جديدة من أجل دعم قضاياها بعد أن تجمدت فترة داخل فضاءات كلاسيكية مثل الشوارع والميادين.

وينتمي المقال إلى اتجاه بلاغي حديث نسبيًّا يُسمى «بلاغة الجمهور»، ويسعى إلى رصد ما أنتجه الجمهور العربي من استجابات بليغة ردًّا على محاولات وسائل الإعلام (الإسرائيلية) استنطاقه، بأسلوب يعكس وجود خطاب ثقافي قائم على سرديات التضامن والانتماء للقضية الفلسطينية، يرفض الإقرار أو الاعتراف بـ(إسرائيل) ككيان شرق أوسطي له حق الوجود على حساب حقوق الشعب الفلسطيني.

ولا يدرس المقال استجابات الجمهور العربي من منطلق ارتباطها بمثير خطابي تداولي منطوق، يتوالد عنها سلسلة ملفوظات تفاعلية إيجابية تعكس حالة من التفاهم والانسجام مع الآخر، بل يقاربها بوصفها

استجابات على مثير قيمي يرتبط بهوية سياسية، تتخذ شكل سلوك مقاوم يُجهض سعي المخاطب نحو إقامة اتصال ثنائي حواري يهدف من خلاله إلى تمرير حقيقة وجوده. ويركز المقال على عرض وتحليل ثلاثة أنواع من الاستجابات الجماهيرية العربية تجاه الهوية والتواجد (الإسرائيلي) على أرض دولة قطر خلال المونديال، وما ينجم عنها من عدوى حميدة تزيد من رقعة انتشارها كسلوك جماهيري عربي، كما يتطرق بإيجاز شديد إلى تفسير الأغراض الدعائية المستترة خلف إصرار الإعلاميين (الإسرائيليين) على تحفيز استجابات جماهيرية بعينها ثم تصديرها إلى العالم بوصفها دليل إثبات على ما يتعرض له (الإسرائيلي) من ظلم واضطهاد مُدَّعيين.

أولًا: أنواع الاستجابات

يهتم هذا الجزء بعرض وتحليل ثلاثة أنواع من الاستجابات الجماهيرية العربية تجاه الهوية (الإسرائيلية)، برزت دون غيرها خلال مونديال قطر، هي: استجابة المقاطعة، واستجابة الإنكار، واستجابة الطرد.

1- استجابة المقاطعة:

تقوم «استجابة المقاطعة» على مبدأ إحجام الجمهور الرياضي العربي عن التعاطي والتفاعل مع وسائل إعلام (إسرائيلية)، وتجنب إجراء مقابلات معها أو الإجابة عن تساؤلاتها بمجرد معرفته هوية المراسل أو القناة. وتجلت هذه الاستجابة في عدة مواقف رصدتها الكاميرات وتداولها العديد من نشطاء الفضاء الافتراضي وحظيت بتغطية إعلامية واسعة، منها استجابة أحد المواطنين القطريين يدعى «محسن بن عمير المري» الذي رفض التفاعل مع مراسل قناة كان «دور هوفمان» بعد معرفته هويته، وتركه وحيدًا ومغادرة المقابلة رغم إلحاح المراسل[1]، ومنها أيضًا رفض شاب لبناني الحديث مع مراسل قناة 12 «أوهاد حيمو» بعد الوقوف على حقيقة هويته[2]. ويعكس تعدد الأمثلة السابقة ثقافة جماهيرية واعية تعتمد أسلوب مقاطعة ذكية وهادئة متجردة من ردود الأفعال العنيفة، وترفض التعاطي أو التفاعل مع الآخر المعادي، كما تؤكد ارتباط الاستجابات بإطار مرجعي وذاكرة إنسانية تعتبر (إسرائيل) كيانًا احتلاليًّا لا مجال معه للأخذ والرد. ورغم أن هذا النوع من الاستجابات غير لغوي، إلا أنه يندرج ضمن

إعلام إسرائيلي.. يطردوننا ويرفضون التعامل معنا، هكذا يُعامل الإسرائيليون في مونديال قطر

«بلاغة الصمت» لامتلاكه ميزات بليغة مشحونة بمعاني ودلالات وإيحاءات ضمنية تعجز أحيانًا اللغة المكتوبة أو المنطوقة عن التعبير عما تختلجه من مكنونات.

2- استجابة الإنكار:

على عكس استجابة المقاطعة، تنطلق «استجابة الإنكار» من قاعدة نفي وجود الآخر ورفض قبوله، وإبطال محاولة المراسل (الإسرائيلي) تعميم وتثبيت مسمى كيانه بديلًا عن لفظة «فلسطين»؛ وقد تجلت استجابة «الإنكار» في عدة شواهد منها ما عبر عنه مواطن سعودي أمام مراسل القناة 12 بقوله «يوجد فلسطين ولا وجود لإسرائيل»، ومواطن لبناني بقوله «قل فلسطين ولا تقل إسرائيل، إسرائيل مش موجودة»[3]، وأمثلة كثيرة لا يتسع المقال لعرضها. ورغم تعارض استجابة «الإنكار» موضوعيًّا مع حقيقة وجود الآخر، واتسامها بخصائص لغوية عاطفية، إلا أنها تعكس دلالة مقبولة لـ«الأنا» الجمعية في سياقها المقاوم، بحيث ترفض تقبل فكرة وجود كيان (إسرائيلي) وتستبعد أي علاقة أو حوار شعبي معه، وهي تسعى بذلك إلى الانسجام مع الذات العربية الجمعية ومقرراتها الفكرية من خلال إلغاء الآخر معرفيًّا. إلى ذلك، يمكن رد بواعث استجابة «الإنكار» إلى التجارب الذي خاضها الجمهور العربي والمشاهدات التي استقرت في مخياله حول العنصرية (الإسرائيلية)، ومقاومته محاولات دفعه إلى التراجع عن موروثه الاجتماعي والثقافي واستبداله بموروث جديد يقبل دعاوى وجود (إسرائيل)، ما يجعل من «الإنكار» استجابة بليغة تتحدى خطاب إلغاء الهوية الفلسطينية.

3- استجابة الطرد:

بموازاة استجابتي المقاطعة والإنكار، تنطلق استجابة «الطرد» من قاعدة رفض الوجود (الإسرائيلي) على أرض دولة قطر ضمن سياق زماني ومكاني محددين، وقيام العديد من المشجعين العرب وأصحاب المحال التجارية بطرد المراسلين الإعلاميين (الإسرائيليين)، وقد تجسدت في العديد من الأمثلة منها استدعاء مالك أحد المطاعم للأمن من أجل طرد مراسل قناة كان من مطعمه[4]، ومخاطبة أحد المواطنين القطريين مراسل صحيفة يديعوت أحرنوت «راز شاشنيك» بالقول «أنتم غير مرغوب بكم هنا، ابتعدوا من هنا بأسرع ما يمكن»[5]. وتتكامل استجابة «الطرد» مع الاستجابات سالفة الذكر من ناحية تعبيرها عن حالة رفض شعبي لكل ما هو

(إسرائيلي) برغم صفة الكرم والضيافة التي يتمتع بها الإنسان العربي، كما تتسم بميزات لغوية وسلوكية حاسمة لا تقبل التأويل تعبر بجلاء عن اتجاهات الجمهور العربي نحو الوجود (الإسرائيلي) في المونديال.

ثانيًا: عدوى الاستجابات

بالنظر إلى تعدد أشكال الاستجابات، وتنوع جنسيات الفئات الجماهيرية المُنتجة لها، يمكن رصد ما أسميه «عدوى الاستجابات»، بمعنى تأثر الجمهور العربي المتواجد في المونديال بإحدى الاستجابات آنفة الذكر واستحسانه لها، ثم تعمُّد استدعائها عند مصادفة أو مواجهة أحد مراسلي الإعلام (الإسرائيلي). والعدوى الناجمة عن التعرض لنماذج اجتماعية، والتي تندرج تحت مفهوم «تأثير النظير»، أشبه بالانتشار الفيروسي لسلوك معين، ينتقل من شخص إلى آخر بشكل سريع جدًّا وفي مدة زمنية قصيرة، ويتمتع بقدرة على التوالد تلقائيًّا دون توجيه أو رعاية رسمية نظرًا لارتباطه بمواقف جماهيرية ثابتة وتلقائية. وهنا، تؤدي العدوى بالضرورة إلى تضخيم الأثر المترتب عن الاستجابات من ناحية تفعيل نوازع التقليد والمشابهة لدى

جماهير الكرة يتضامنون مع القضية الفلسطينية في مونديال قطر

مقاطعة الإعلام الإسرائيلي في مونديال قطر 2022

الأفراد، أو ظهور أشكال جديدة من الاستجابات لا تنحصر في المقاطعة والإنكار والطرد(*)، أو الانتقال بها من حالة سلوكية مؤقتة مرتبطة بسياق زمني محدد إلى حالة دائمة تتمتع بميزة الديمومة، بحيث تتحول بمرور الوقت والتكرار إلى منهج جماهيري راسخ يضرب في مقتل جهود الدعاية (الإسرائيلية) تحقيق اختراقات داخل المجتمعات العربية. لذلك، ومن مدخل بيداغوجي،

يمكن النظر إلى العدوى في سياقها الحالي بكونها سلاحًا يحتوي على مجموعة من المعارف والأدوات والخبرات تمكن الجمهور العربي من استدعائها في مضمار مقاومة محاولات الإعلام (الإسرائيلي) تمرير أغراضه دون وعي منه[6]. ولأن نجاح خطاب سلطوي ما في تحقيق وظائفه يقاس أساسًا بقدرته على السيطرة على استجابات مستهلكيه[7]، يمكن استنتاج فشل الإعلام (الإسرائيلي) في توليد استجابات جماهيرية مرغوبة تصب في خدمة مخططاته.

ثالثًا: استغلال محتمل

تكشف ردود الأفعال (الإسرائيلية)، الإعلامية والرسمية، عن حالة من الصدمة والذهول تجاه ردود أفعال الجماهير العربية؛ فالنتائج المتوقعة عن اتفاقية «أبراهام» وجهود الدعاية الرسمية في مجال التطبيع الشعبي جاءت بخلاف المأمول. وتقول الكاتبة الإسرائيلية «ميخال أهروني» في مقالها بصحيفة «يسرائيل هيوم»: «هؤلاء هم الناس الحقيقيون (في إشارة إلى الجمهور العربي).. لا يحبون إسرائيل، ويتضامنون مع إخوانهم الفلسطينيين، ولن ينجح أي اتفاق مهما كان احتفاليًّا وناجحًا في أن

محسن بن عمير المري

ينسيهم واقع الصراع»[8]. ورغم ملامح الارتباك البادية، والإقرار بوجود فجوة بين توقعات سابقة وبين الواقع الفعلي، إلا أن بوادر استغلال الموقف بدأت في الظهور مبكرًا، سيما تصدير (إسرائيل) صورة سلبية عن الجمهور العربي، وتعمدها إبراز مصطلحات مثل: (الكراهية، والعداء، والغضب، والخوف، والاعتداء، والتهديد) وربطها بالدولة المستضيفة، في إشارة ضمنية إلى مسؤولية قطر عن تفشي هذه الاستجابات دون مجابهة مماثلة لتلك التي تعرض لها مشجعون يرتدون الزي الصليبي أو يضعون شعار «المثلية»[*]. ومن غير المعلوم إذا ما خططت (إسرائيل) سلفًا استغلال المونديال لمصلحتها؛ لكن تعمد بعض الإعلاميين (الإسرائيليين) التحرش بالجمهور العربي بهدف تحصيل ردود فعل سلبية، تلاه نشر إعلامي ممنهج لرواية الكراهية العربية، يدفعنا إلى افتراض وجود نية مسبقة نحو توظيف الاستجابات مستقبلًا كأمثلة وشواهد على سلوك «معاداة السامية».

خاتمة

خلص المقال إلى عدة نتائج أهمها توظيف الجمهور العربي ثلاثة أنواع من الاستجابات، هي: المقاطعة، والإنكار، والطرد، وأن انتشارها على نطاق واسع مرده أولًا إلى أسباب معرفية مرتبطة بالموروث الثقافي، وثانيًا إلى العدوى الناجمة عن تأثير النظير، وما يترتب عليها من تفعيل الأفراد خاصية المشابهة والتماثل مع مواقف وسلوكيات أفراد آخرين، وأن احتمال استغلال الاستجابات دعائيًّا في مضمار إقناع العالم بكراهية العرب لـ(إسرائيل) محتمل وقائم. وتقودنا النتائج إلى استنتاج حقيقة ثابتة مفادها عدم تفويت الجمهور العربي أي مناسبة محلية أو دولية يجد فيها فرصة سانحة لتأكيد انتمائه للقضية الفلسطينية وإسناده لها، سيما إذا ما تحررت هذه الفرص من هيمنة وتحكم السلطة؛ ولنا في سيف القدس عام 2021 ومونديال قطر 2022 خير دليل ○

الهوامش:

1- عربي 21، «مشجعون عرب يرفضون تواجد مراسلي الاحتلال بالمونديال»، تاريخ الدخول 1/ 12/ 2022، انظر الموقع الإلكتروني: https://t.ly/JZmz.

2- الجزيرة مباشر، «مشجعون عرب يرفضون التحدث لوسائل إعلام إسرائيلية في مونديال قطر»، تاريخ الدخول 1/12/2022، انظر الموقع الإلكتروني: https://t.ly/F67e.

3- نفسه.

4- الكلمة أونلاين، «يطردوننا ويرفضون التعامل معنا: هكذا يُعامل الإسرائيليون في مونديال قطر»، تاريخ الدخول 2/ 12/ 2022، انظر الموقع الإلكتروني: https://t.ly/HGQ-.

5- شبكة فلسطين الإخبارية، «إعلاميون إسرائيليون غاضبون من طريقة تعامل العرب معهم بالمونديال»، تاريخ الدخول 2/ 12/ 2022، انظر الموقع الإلكتروني: https://t.ly/O-Pu.

★ من الاستجابات التي ابتكرها الجمهور العربي ما أسميه استجابة السخرية، التي تقوم على تعمد تسجيل مقاطع فيديو تمثيلية تقلد ردود أفعال المشجعين العرب على الهوية الإسرائيلية.

6- عماد، عبد اللطيف، بلاغة المخاطب: البلاغة العربية من إنتاج الخطاب السلطوي إلى مقاومته، ضمن السلطة ودور المثقف، جامعة القاهرة، 2005، ص7.

7- عماد عبد اللطيف، تحليل الخطاب بين بلاغة الجمهور وسيميائية الأيقونات الاجتماعية، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، العدد 83- 84، خريف/ شتاء 2012- 2013، ص513.

8- الجزيرة نت، «مونديال قطر 2022.. هل انتصرت فلسطين على إسرائيل؟»، تاريخ الدخول 3/ 12/ 2022، انظر الموقع الإلكتروني: https://t.ly/G6qV.

★ تظهر ملامح تقاسم للأدوار بين الرسمي والشعبي تجاه الوافد (الإسرائيلي)، ففي الوقت الذي تضطر فيه دولة قطر إلى استضافتهم، يجد الجمهور العربي نفسه متحررًا من قيود التعبير عن توجهاته الحقيقة تجاه (إسرائيل) ودون أن يتسبب بإحراج للدولة المستضيفة.